مشكلات الفلسفة :

في الحرية

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

تأخذ الحرية لدى الشبان معنى لا يمكن أن تدركه ولا أن تتوصل إليه أذهان الشيوخ ، ويكون لهذه الكلمة من الوقع في نفوس المقبلين على ميادين الحياة البكر أكثر مما يكون لها عند الذين أشرفت عهودهم على النهاية واقتربت أعمارهم من الختام . فالحرية لا يمكن أن تكون موضوع بحث أو مثار نزاع إلا في الأطوار الأولى من حياة الأفراد ، حيث تسبغ البكارة غموضها على كل شيء ، وتبعث الطفولة أحلامها في كل معنى ، وتقتحم المثل الإنسانية تصاويرها من كل جانب . وإذا صح هذا كنا بإزاء نتيجتين : إحداهما أن الحرية تقترن بالجهل دائماً ، وثانيهما أن العادة هي العدو الأكبر لما تؤدي إليه الحرية من صنوف العمل وضروب الإنتاج .

ولتوضيح هاتين النظريتين ينبغي أن نبدأ فنؤكد تلك الصلة الوثيقة بين الجهل والحرية عن طريق ما يسمونه في الفلسفة بالممكنات . أليست الممكنات أشياء مجهولة عند من يريد أن يضعها موضع البحث والتأمل ؟

نعم ، هي كذلك بلا مراء ما دمنا بعيدين عن دائرة الوجود الحقيق ، وما دمنا مقتصرين على تدبر الاحتمالات النظرية بخصوص شأن من الشئون . وكان أرسطو في الفلسفة القديمة يفرق بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل على أساس أن الأول هو الشيء الذي لا يزال في حكم العدم ، وإن راودنا الأمل في وجوده بعد حين . أما الأشياء الموجودة بالفعل ، فهي تلك التي تقوم من حولنا والتي نظلنا بظلها وتثقل علينا بوطأتها وتعيش في العالم الظاهر المحسوس . وهناك اختلاف كبير ينبغي أن نلاحظه بين العدم الخالص وبين الوجود بالقوة ؛ فهذا على الرغم من أنه غير موجود ، يقع في دائرة الإمكان وينظر الإنسان إليه نظرته إلى شيء سيأتي به المستقبل على وجه من الوجوه .

أما العدم ، فهو حقيقة خالية من أية مضمون ، ويستحيل أن يكون في المستقبل بحال من الأحوال ، ولا يملك في ذاته ما يعينه على أن يتحقق ، أي أن يكون شيئاً ما . وعين هذه التفرقة التي وضعها أرسطو هي التي ترددها اليوم فلسفة الوجود على وجه يختلف قليلاً من ناحية الاصطلاح اللفظي ولا يختلف كثيراً من ناحية المضمون المعنوي .

فالفلسفة الوجودية والفلسفات الحديثة عموماً تضع كلمة الممكن في مقابل الاصطلاح الأرسطي (الوجود بالقوة) ، وتضع كلمة الوجود للتعبير عما هو قائم في حدود الأشياء الماثلة أو داخل ضمن الكائنات الحية . وكل امتياز للممكن على العدم يتلخص في قدرته على أن يكون ، وفي احتوائه على ما يمكن أن يهيئ له الحياة ، وفي شموله على المعبر الذي يمكن أن ينقله إلى دائرة الوجود . ولما كان الأمر كذلك بالقياس إليه ، فقد صاحب الإنسان عند مواجهته شعور بالإبهام لا يستطيع أن يفسره إلا على أساس من جهله بهذا الشيء — أستغفر الله — بل بهذا اللاشيء . وكلما كان الإنسان في عهد مبكر ، وكلما قلت تجاربه وضعفت خبرته كان أقرب إلى هذا الشعور بالجهل . فالوقوف بإزاء المجهول من شأنه أن يولد في النفس إحساساً غريباً بتعدد الوجوه التي يمكن أن تتصور فيها الأشياء ، وبكثرة الخطط التي يمكن أن تؤدي إليها المسالك ، وبقوة الاحتمال فيما هو ممكن غامض . وإذا زاد الجهل بالإمكانيات إلى هذا الحد استشعر الإنسان بالحرية على نحو لا يمكن أن يخالج صاحب المبدأ في المشاكل التي تعرض له ، أو صاحب النهج في المباحث التي يوقف نفسه عليها . فالمبادئ والمناهج لا تأتي إلا من كثرة التجارب ومن اعتياد المضي بالأمور على أنحاء محدودة . أما الجهل بما يترتب على فعل من الأفعال وعدم انتظار نوع بالذات من أنواع الموجودات عقب إتيان أمر من الأمور ، فمن شأنه أن يولد في صدر الإنسان ضرباً من الحرية ، وطرازاً في الاختيار يندر وقوعه في غير هذه الظروف . فالجهل حليف من حلفاء الحرية لا يمكن إنكار أثره أو إهمال مفعوله عندما نحاول أن نقيم نظرية في الاختيار على أساس نظرية في الوجود

ونستطيع أن نثبت هذا الشعور بالحرية لدى الجاهل عن طريق الأمثلة : فالأديب الذي يجهل المراجع الهامة في بحثه يكون

عادة أكثر حرية فى الكلام من الأديب الذى يستوعب كل ما يكون قد قيل أو كتب حول الموضوع الذى يختص به ؛ والسياسى المبتدئ يشعر بالحرية بينما لا يمكن أن يطمئن فى أداء السياسى المحنك — وقس على هذا المنوال بالنسبة إلى أى شخص فى موقف من هذا القبيل ، أو عند ما يواجه أمراً من الأمور لأول مرة . وليس عبثاً ما كان قد جاء على لسان اسبنوزا فى موضوع الحرية من أن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد معرفة بالضرورة الحاصلة فى الوجود وبالحتمية الضاربة فى أنحاء الكون . وتنحصر الفائدة المرجوة من وراء الفلسفة والمعرفة الصحيحة فى أنها توقفه على قوانين الأشياء وتجعله قادراً بالتالى على متابعتها ومسايرتها .

وإذا كان من نعمة الجهل علينا أنه يجعلنا نتخدع من أنفسنا ونحسب أن الحرية ملك أيدينا ، وأننا نفعل ما نشاء أن نفعله من غير أن تتدخل قوة فى الأرض أو فى السماء ، فمن بلوائه — فى مقابل هذا — أنه يملأ قلوبنا بالخوف ، وينشئ فى نفوسنا ضروباً من القلق ، ويبعث فى نفوسنا ألواناً من الجزع والهم . وذلك طبيعى ومعقول جداً إذا أنعمنا النظر فى الحقيقة الماثلة أمامنا وتبينا فيها ملامح الغموض والإبهام وعدم التعين . فالإنسان فى أمثال هذه المواقف يحس بالجزع حينما يواجه عالماً مستتراً غير معلوم لديه وليس داخلاً فى نطاق تجاربه الذاتية . ويمكن أن نشبه هذه الحالة بموقف رجل للمرة الأولى أمام الميزان الذى لا يعمل إلا بعد وضع قرش مثقوب فيه . إنه لا شك سيحس بنوع من الخوف على القرش طيلة الأمد الذى يسبق خروج التذكرة المكتوبة . أما الرجل المتحضر المجرب لمثل هذه الآلة مرات ومرات فلا دخل للجزع فى عمله هذا على الإطلاق ، ولا يكاد يحس بأى إشفاق على القرش وهو يلق به من داخل الثقب .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الفتى الذى يصوب عينيه نحو الزمن ، هو ينفض بالممكنات من طريق المستقبل الغامض المجهول . يتملكه القلق ويهزه الخوف على ذلك الشىء المقلق وهو قاب قوسين أو أدنى من العدم . إنه يشرف على حقيقة الوجود وهى فى طريقها أن تكون على نحو من الأنحاء لا يعلم مداه ولا يدرك منتهاه . حتى العلم الطبيعى الذى كان مجالا من مجالات الثبات واليقين قد فقد كل الصفات الحتمية والاطراد . فأصبح العالم غير متأكد من خلوص التجارب إلى نفس ما خلصت إليه فى الماضى على الرغم من توافر كل ما من شأنه أن يكفيها ويهيئها للحدوث على وجه واحد بالذات . فالإنسان عند ما يواجه تجربة من أى نوع لأول مرة يكون فى خوف من ألا تكون ؛ أو أن تكون ولكن على نحو غير الذى يؤمل فيه ويطمع إليه وقد تتغلب المعرفة أو التجارب الكثيرة على هذا الشعور بالخوف ولكنها لا تقضى عليه قضاء تاماً إلا بعد أن تتدخل العادة . وهى كما قلنا فى صدر هذا المقال عدو الحرية الأكبر .

فالعادة من شأنها أن تفسد دلالة الحرية من جانبين : جانب الآلية فى إتيان الأعمال وإصدار الحركات ، وجانب الشعور بالاطمئنان عند مواجهة المكنونات المستترة فى ضمير الغيب . ويقول رافيسون فى كتابه عن العادة إنها توحى — كما توحى الأفعال الغريزية — بالجنوح إلى هدف مقصود من غير ما إرادة أو شعور . وهذا صحيح من ناحية كونه دليلا على خلو العادة من الإحساس أو من البطانة الوجدانية كما يقول علماء النفس . فيصعب أن نقول بوجود أى نوع من أنواع المخاوف وأى ضرب من ضروب التنازع عند أداء الأفعال المعتادة . وبناء على ذلك تمحى كل حرية وتزول كل إرادة وتختفى مشابه الاختيار الذاتى ، فهذه كلها لا تتوفر إلا حيثما كان الإنسان قادراً على الاقتتال لها والاهتمام بشأنها والتوتر من أجلها .

والحرية من شأنها أن تبعث فى الإنسان ألواناً من الخوف والفزع ، لسبب بسيط وهو أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجوده ومماته . فيكفى أن تتصور أنك أنت صاحب الأمر والنهى فى إعداد حياتك وفى تقرير مصيرك وفى تكييف أقدارك حتى تتفجر فى رأسك عيون الخوف ، وحتى تثور فى صدرك عوامل الرعب ، وحتى تنتاب جسمك عوارض الحمى ... فأنا مثلاً أقرر مصيرى — ككاتب — على هذه الورقة البسيطة البيضاء تحت عينى وأضع لنفسى قيوداً من الرأى لا أستطيع الفكاك منها حتى يأتى المستقبل . وانظر على هذا النحو فى حياة الناس وتأمل

أفعالهم على ضوء كل من المادة والحرية فنجد أن الأفعال الحرة وحدها هي التي يوازيها على طول الامتداد شعور بالقلق ويحس صاحبها بأنه يأتيها لأول مرة . وذلك لأنها مشدودة إلى كيانه شداً بحيث لا يملك في النهاية إلا أن يخضع لها وأن يكون مأسوراً بها .

والحق أن الأفعال الحرة الواعية لا يزاملها الشعور بالقلق وحده ، وإنما يرافقها أيضاً — إلى جانب هذا — إحساس خفي بالهم . ولنضرب لهذا مثلاً بواحد من الناس الذين يملكون الوقت من أجل الذهاب إلى المسرح أو التنزه في الخلاء أو البقاء في البيت أو القيام بزيارة صديق . ولنفرض مقدماً أن هذا الشخص هو بعض الذين يهمهم الوقت ويحسون بعامل الزمن إحساساً قوياً في معاشهم بحيث يضطرون لإقتناصه حينما يمضي هباء . سيضطر أولاً إلى عملية الاختيار ، وهي عملية قد تكون مهملة عند الإنسان العادي بحكم انصرافه عن التفكير أو بحكم تركه للأمور في أيدي المقادير . أما الشخص الحر الواعي فسيضع أساساً للاختيار وسيعرف في قرارة نفسه بأن ثلاث ساعات متصلة ستضيع من عمره ومن حياته في هذا الفعل البسيط وأنه أحق به أن يستفيد من بقائه على الأرض على أفضل وجه ممكن . ولا شك أن وجوده بأكمله ينقسم إلى جزئيات من هذا القبيل فعنايته بساعة من عمره تضارع عنايته بكل هذه الساعات التي يقضيها على وجه البسيطة . والعالم الخارجي من شأنه أن يقدم إليه الإمكانيات حتى يبذل من لدنه ما يحيلها إلى وجود ، ويصرف من طاقته الخاصة ما يبثها من جودها ويبث فيها الحياة — قد تكون المجالات محدودة أمامه ، وقد تكون الإمكانيات معدودة عليه ؛ ولكنها مع هذا كله تدع له فرصة للاختيار ؛ وفي الاختيار وحده ينحصر وجوده ويتحدد معاشه .

فهناك أنواع كثيرة من الوسائل التي تقدم للإنسان متعاً تلذه ومباهج ترعه وأدوات لتثقيف الذوق وتهذيب الروح . قد تكون هذه الوسائل محدودة في المجتمع الذي نعيش فيه ، ولكننا مع ذلك نحكم رأينا ونعلق فرديتنا عليها بعملية من الاختيار الواعي ؛ وكلما زدنا جهلاً بالمجالات التي يتيحها لنا المجتمع ارتفعت قيمة الحرية وازداد قدرها . فلو أنني مثلاً لا أعرف غير أربعة وسائل من وسائل التسلية ومن أنواع الملاهي في القاهرة لكان اختياري بنسبة (١ : ٤) أي أن حريتي حينئذ تساوي الربع . أما إذ كنت أعرف اثنين فحسب كانت النسبة (١ : ٢) أي أن حريتي آنئذ تساوي النصف .

وهكذا يحدث عندي الشعور بالقلق من ناحية الاختيار ، أما الهم فيتولد عندي إحساس به وأشعر كأنما يثقل على صدري من جراء الأسف على ضياع الإمكانيات الأخرى عندما أحدد رغبتي وأثبت إرادتي على شيء بالذات . فأنا مثلاً عندما أذهب إلى المسرح أحس بالهم من جراء طمعي في أن أحصل على أقصى ما يمكن أن تهبني إياه الحياة . ونتيجة لشهوتي في إحتلاب كل ثانية تمر بي واعتصار كل لحظة تمضي علي وأنا حي أرزق . ولذلك تراني في المسرح مهموماً من أجل تلك الإمكانيات الأخرى (التنزه في الخلاء — البقاء في البيت — زيارة الصديق) التي قتلتها بيدي وأعدمتها بمحض إرادتي مع أنها قد تكون أعود علي بالخير من كل ما أنا فيه من استمتاع أو حبور — ولكن يكفي بعد هذا أن أحس بأنني قد اخترت وأنا حر من كل قيد ، وأن مسئولية هذا الاختيار تقع على عاتقي وأن كل شيء يأتي من إرادة أفضل بمئات المرات من أسعد الأوقات التي يعيشها الإنسان من غير رغبة : أقول يكفي هذا كيما أطامن في نفسي من شدة الشعور بالحسرة وأواجه الحياة بقوة وجلد .

وهكذا تقترن الحرية بنوع من المثالية الخالصة ومن الفدائية الصماء فتكسب وجودنا ألواناً من البهجة الخالية من الزيف والبريق ، وتسبغ على حياتنا غير قليل من الصراحة وتشعرنا في قرارة أنفسنا أننا في بؤس ولكن من إرادة ، وفي حزن ولكن من إرادة ، وفي هم ولكن باختيارنا ، وفي حزن ولكن برغبتنا . وهكذا نحن نحمي أنفسنا من مرارة الحياة ونرضي غرور الإنسان القوي منا والضعيف .

عبد الفتاح الديدي